

العرفان

نصوص | قصيدتان في مدح الرسول الكريم بذكرى مولد النور

اضواء | العنكبتي ينفي التهم الموجهة إلى لغة الضاد

فنون | الراوي يعلن انتهاء مشروعه لحفظ الوثائق الفنية بالطلاق الشرعي

العراقيون وسايكولوجية الجدل المزمع

أمواج متلاطمة من الأفكار والنقائض

نجم عبد خليفة

بغداد

يقول علماء الفلسفة ان للجدل مزاي ايجابية مشرقة فهو يشحن الادهان ويوقد الفكر ويفتح امام الاستنتاج والقياس والاستنباط افاقاً واسعة نستلهم منها الحلول لكثير من المعضلات والمشاكل وكذلك يضعنا في طريق التوصل الى الحقائق التي تنفع الانسان وتضعه في الطريق الواضحة من اجل الارتقاء بأنسانيته والبحث عن الرقي والتطور وتذليل الصعاب وبناء حضارة يتبارى من اجلها جميع البشر. فتولدت عبر التاريخ مدارس جدلية عريقة بدءاً بالرومان والاعريق وبحثهم المتواصل عن المعرفة والاخلاق والحقيقة والانسان فتأثرت الحضارات الاخرى عن طريق المحاكاة والمخالطة لتقع تلك الفلسفة في احضان الامم الاخرى ومنهم اجدادنا العرب والتي ربما انتقلت لهم عبر الفتوحات الاسلامية وحروب التحرير .



الذي اراد الرسول الكريم (ص) البسر والوضوح والبساطة وكبره الغلو والتنطيع والمبالغة كان للعراق نصيب وافر من الجدل وقد تميز العراقيون دون غيرهم بهذا الميزة التي جلبت انتباه التاريخ واصبحت سمة ظاهرة للعراقيين على مر العصور فما من مصر من الاصرار الاسلامية اشتهر بهذه النمطية من التفكير والتجدد مثل العراق فلو احصينا الفرق العراقية الجدل في حياتهم فاستكروا وتفوقوا على باقي الفرق الاخرى في حياتهم ومثلهم في هذه الانقسامات والاختلافات فما يكاد ان يتفوقوا على باقي الفرق الاخرى.

وما تكاد ان تجتمع جماعة على رأي حتى اختلفوا في غيره وانقسموا على انفسهم واخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض معتمدين على الانصياع الفكري التي ورثوها في الجدل من الاجداد عبر العصور والتي يقدسون فيها مصطلحات الغلبة والسيطرة كالأحكام والاحكام والاسكات والادلة الدامغة فتولدت آراء منطوية بعيدة عن الموضوعية احدثت البعد والاختلافات فلو تتبعنا مثلاً تاريخ فرقة الخوارج التي بدأت بشخص واحد نظر الى الامور نظرة شخصية تستند الى افكاره الخاصة المبنية على خصائصه الفكرية والنفسية والسلوكية المحدودة الى ان انتهت من مشارف العصر العباسي الى اكثر من خمسين فرقة يجادل بعضهم بعضاً دون التوصل الى حلول ودون التنازل ولو بشيء يسير لبعضهم البعض ناهيك عن التحزبات والتكتلات المؤيدة لاهل البيت والاصحاب البيت الاخرى. وما ان توفي الرسول (ص) حتى ظهر الجدل بصيغة فكرية جديدة ونمط آخر فقد اختلفت وسيلته فقط اما غايته من المصاراة والتشويه فقد بقيت كما هي حيث انصب الجدل بكل ثقته على تعاليم الرسول بما فيها القرآن الكريم فكان للقرآن حظ كبير من الجدل في صورة التفسير والتاويل ففسرت اولت بعض الايات بما يناسب اهل الحدائق والجدل. قاتل الرسول الاعظم (ص) قريش بداية دعوته على تنزيلة القرآن والخلفاء الراشدين من بعده المتحذلقين على تاويله ثم تناهت بعد ذلك المدارس الجدلية لتقول لنا المذاهب الاسلامية المختلفة والتي تجادته بفروع الدين اشد المجادلة، فراحت طائفة تحجب او تبطل حجج الطائفة الاخرى بتفسيرات وتاويلات ترى كل طائفة منها انها على جادة الصواب في التفسيرات والتاويلات دون التوصل الى حالة وسط بين الاثنان فالجدل يأخذ منحى طرفياً حديداً لاوسيلة له تطبيقاً لقاعدة (الحق بين الباطل وبين) فكل طائفة او مجموعة تظن ان الحق معها والباطل مع سواها فاخذ الجدل يخنث عن فرق تنسيجية اختلافات بسيطة لها الكثير من الحلول فيها فقيه البصرة يختلف مع احد تلامذته وهو اصل بن عطاء على مسألة شارب الخمر هل هو كافر ام منكب؛ فاعتزل واصل بن عطاء حلقة شيخه الحسن البصري ليجمع له اتباع لفكرته المسجدة من ان شارب الخمر هو كافر وليس مذنباً كما قال شيخه البصري، فنشأت فرقة المعتزلة والتي بدورها تنازلت ايضا على نفس النمطية الجدلية في التحليل والاستنتاج فاصبحت فرقا عديدة انقلت كامل الفكر الاسلامي في الوقت

تعلق العرب بهذا النهج من التفكير والطريقة في الاستنباط والتحليل فاستأصغوا الغريب منها وعملوا فيه الفكر مستخدمين في ذلك الى اولويات من هذا النوع من التفكير الذي اعتاده العرب قبل الاسلام وهم في صحرائهم التزامية الاطراف والذي طالما تطلعوا الى مسألوهم من الظواهر الكونية والحياتية وحاولوا ايجاد الحلول والاسباب لها. ثم جاء القرآن الكريم متوجهاً هذا الفكر بنمطية عظيمة في التوجيه والنظر الى معالم الكون والغور في اعماقه وربط الاسباب بمسبباتها حتى تولدت فكرة ناضجة قدمت الحلول وليس التساؤلات، فالقرآن الكريم عالج كل تلك الافكار والتساؤلات الفلسفية وقدمها على طبق القرآن وفي مستنزل العنماء والفلاسفة فظل الجدل من اجل خلق مسيرات وجود الاشياء فاستمد بذلك الاختلاف لكن في النتيجة نتج الانتشار الى حلول شافية وافية يستفيد منها الانسان في مستجدات حياته. احدثت فكرة الجدلية صدمة كبيرة وولدت تناشراً اجتماعياً وفكرياً لدى اجدادنا العرب، فالجدل المتعارف عليه انذاك سواء في الجاهلية او في صدر الاسلام غالباً ما يكون جدلاً ليس من اجل الحلول او البحث او التصالح او الوصول الى بؤرة تجمع شتات الآراء لكن جدلاً ارسنقراطياً يتناغم مع المصلحة الشخصية على مستوى الفرد او مستوى الجماعة من اجل الرغبة الجامحة في التفرد.

فالمقياس الذي هو الادارة الجدلية الكبرى والتي لاتقبل الشك ببتكر الحلول القاطعة للتقيض وضده حيث يبرهن على صحة اي رأي وعلى صحة نقضه في آن واحد، بأدلة عقلية ونقلية لاتقبل الشك ما ادى بالمتجادلين والمتحذلقين ان يتشبثوا بارائهم تشبثاً غريباً فيجد الحق والمنطق الى جانبهم دون الاخرين الذين يدورهم ويجدون الحق والمنطق الى جانبهم بكل الادلة. هذه النزعة الجدلية القوية هي وليدة خصائص اجتماعية وفكرية ضارية في القدم ومتوارثة عن اسلافنا القدماء وتلك الخصائص نشأ عليها الشخص العربي في الجزيرة العربية واصبحت من متطلبات حياته والصراع من اجل بقاءه. فهذه الثقافة المترزمة نستطيع ان نجدها بكل وضوح من خلال ادبيات العرب وتاريخهم واياهم عبر شواهد تاريخية وثقافية واجتماعية لا تحصى.

فالمناظرات والمفاخرات والمنازعات والمجاهدة العربية لو ابعنا النظر فيها ومحصلاها فسوف نجد بكل وضوح النزعة والرغبة الجدلية القوية بالنشبت بالمعقول والا معقول وخلق التبريرات المتحدقة من اجل مصداقة الرأي الاخر لان العربي لا يستطيع ان يجد احدا يخالفه في الرأي او العقيدة وكذلك الاعتداء على ذلك المخالف وبعته بما شاء من نوت. هذا الجدل هو حقيقة اجتماعية وسايكولوجية ظهرت نتيجتها لاضطرابات سلوكيات البيئة التي غالباً ماتتلق اللقن النفسي وتشتع المخاوف للمجتمع في بيئة ليس فيها للضعيف حياة فتمتد الشخصية بالصراع بين ما تتطلبه البيئة من حدة وقوة وتجاوز وبين ما هو عليه فتخلق الازواجية المقيتة التي تبحث عن

الاجتماعية العراقية قبل الف وثلاثمائة سنة عندينا وصف اهل العراق في خطبة طويلة بين فيها سوء الطاعة والفرقة واللجاج والجدل والاراجيف والاشاعسات التي تطلق بين اونة واخرى، فقال مخاطباً اهل العراق: (سباكم الا الصلف والشنف وعلقوا فلو وقفنا عند هذه الفكرة ففسرنا ما جاء فيها، لنجد انه يصف عدم الانصياع والماناسبة لكن بنحدر الحجاج ويعقب الجملة (بمق الماء) وهذه خاصية تقيضة جدا للصاف والمهاترة حيث يصفهم بالجوارى والوصائف الاتي يتعلق لاسيادهن وارباب نعمتهن كيف يكون الشخص صلفاً متكبراً ولذلياً متملقاً في نفس الوقت فهذا دليل على ان لهذه الشخصية الية معقدة التركيب تجتمع فيها الاضداد ويغلب عليها القبح وهذا هو السبب المباشر والصميم على ضياع فرص كبيرة وكثيرة للعراقيين عبر التاريخ من الوصول الى مايريون ومايتطمحون اليه.

وانه من العجب ان نرى الشخص الذي يؤمن بان الانسان الناجح في الحياة هو (الذئب الاصعط) وان الرجل الحقيقي الذي يحمل كافة مواصفات الرجولة هو الذي (يجيب نقش) يؤمن كذلك بالمثل الذي يقول (كل من يأخذ امي هو عمي) او (شيسني اليوم وجوعي باجر). فمثل هكذا شخصية هي افة مهلكة للاعتبارات الموضوعية والقيمية وحرية الانسان في الاختيار، فلم تكن تلك الحقيقة غائبة عن والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي عندما شُخص هذه النزعة النفسية

عند فتوحهم الاسلامية ومفاوضتهم لسادات القبائل من الاعراب. ولطالما تزينت المجالس والمسامر بالتلغني والاشادة بشخصيات من قطاعي الطرق والصعاليك المنتهكين لاعراض الناس مثل الشفر وعروة بن الورد وماك بن الربيع وغيرهم فاولئك اشخاص لا يخضعون لسلطة ولا يمتثلون لامر ولا يهادنون القانون فكان العراقي وما زال موصوفاً بقلعة الطاعة والشقاق على اولي الرئاسة كما قال الجاحظ فما ان يتولي شخص الحكم او السلطة حتى انعقدت المجالس يبحثون عن قيم البداوة والصحراء فالعربي قديماً لا يخضع لرئيس ولا لقانون فهو يرى دائماً انه احق بالسلطة من غيره وليس هناك من هو اعلى منه مهما يكن فهناك حوادث تاريخية مشهورة في الاسلام تؤيد ذلك، منها ان احد الاعراب تفاوض مع النبي (ص) على دخوله الاسلام شرط ان يشركه في السلطة او يوليه الخلافة من بعده. وكذلك الخلفاء الراشدين تعرضوا لمثل هكذا شروط من شخصيات اعرابية عديدة

يوسف الثقفي والي العراق يصف العراقيين بانهم اهل شقاق ونفاق بالرغم من اختلاف الشخصيات بالمرستين في التربية والتنشئة بين الامام علي (رض) والحجاج. والنفاق هنا كناية عن الطرق العديدة والمتنوعة التي يلجأون اليها والتي هي من مبتكرات الجدل الزمن.

امتاز العراقيون عبر التاريخ بقلعة الطاعة وعدم الامتثال لاوامر وهذه خاصية اخرى مزروعة في نفس العراقي حلتها الجينات الوراثية عن قيم البداوة والصحراء فالعربي قديماً لا يخضع لرئيس ولا لقانون فهو يرى دائماً انه احق بالسلطة من غيره وليس هناك من هو اعلى منه مهما يكن فهناك حوادث تاريخية مشهورة في الاسلام تؤيد ذلك، منها ان احد الاعراب تفاوض مع النبي (ص) على دخوله الاسلام شرط ان يشركه في السلطة او يوليه الخلافة من بعده. وكذلك الخلفاء الراشدين تعرضوا لمثل هكذا شروط من شخصيات اعرابية عديدة



فالمقياس الذي هو الادارة الجدلية الكبرى والتي لاتقبل الشك ببتكر الحلول القاطعة للتقيض وضده حيث يبرهن على صحة اي رأي وعلى صحة نقضه في آن واحد، بأدلة عقلية ونقلية لاتقبل الشك ما ادى بالمتجادلين والمتحذلقين ان يتشبثوا بارائهم تشبثاً غريباً فيجد الحق والمنطق الى جانبهم دون الاخرين الذين يدورهم ويجدون الحق والمنطق الى جانبهم بكل الادلة. هذه النزعة الجدلية القوية هي وليدة خصائص اجتماعية وفكرية ضارية في القدم ومتوارثة عن اسلافنا القدماء وتلك الخصائص نشأ عليها الشخص العربي في الجزيرة العربية واصبحت من متطلبات حياته والصراع من اجل بقاءه. فهذه الثقافة المترزمة نستطيع ان نجدها بكل وضوح من خلال ادبيات العرب وتاريخهم واياهم عبر شواهد تاريخية وثقافية واجتماعية لا تحصى..

